بحث في التبغ وضرائبه[1]

للأمير عبد الغني الشهابي
مدير املاك الدولة بدمشق

﴿ تاريخه ﴾ التبغ لفظة عربت بها كلمة Tabac الأعجمية . ويقول بعض المؤلفين ان هذه الكلمة التي عم استعمالها في اللغات الاجنبية للدلالة على النبات المذكور هي مشتقة من لفظة تاباكو (Tabacco او Tabago) وهو اسم يطلق على جزيرة صغيرة من جزائر الأنتيل في اميركة يظهر ان الرواد عثروا على التبغ فيها اولا . ويقول آخرون انها مشتقة من كلمة تاباسكو (Tabasco) وهي جزيرة أخرى واقعة في خليج المكسيك . ويزعم غيرهم انها لفظة كان يستعملها سكان اميركة الأصليون لورقة ناشفة يحاط بها نبات التبغ فاقتبسها عنهم الرواد الاولون . ولقد كان للتبغ اسماء كثيرة زال استعمالها فالبرتغاليون كانوا يسمونهُ العشبة المقدسة والفرنسيون العشبة العجيبة وام الاوجاع وعشبة الملكة وغيرها

وليس لهذا النبات لفظة عربية لانهُ ما كان معروفاً في بلاد العرب قبل كشف اميركة وهو لم ينقل الى بلادنا (بلاد الشام) الاَّ في اوائل القرن السابع عشر من الميلاد . وأشهر لفظة يسميه العرب بها هي الدخان والتتن وكلاهما لا يدلان على ان النبات كان معروفاً قديماً وكذا لفظة التنباك للنوع الآخر المعروف . وذكر العلامة النباتي بوست التبغ Nicotiana tabacum والتنباك N. rustica في كتابه الشهير « نباتات سورية وفلسطين ومصر وبواديها » فقال انهما يزرعان ولم يقل انهما ينبتان طبيعيًّا في تلك البلاد . والذي عليه معظم العلماء لاسيما العالم النباتي دوكاندول صاحب كتاب « اصل النباتات الزراعية » هو ان مهد التبغ الاصلي في اميركة وانهُ انتقل منها فصار يزرع او صارت تنبتهُ الطبيعة في كثير من الاقطار كالصين وفارس واوستراليا وغيرها . وعند ما كشفت اميركة كانت عادة تدخين التبغ ومضغه والعطس به متفشية في معظم اقاليمها . ولم يكن الاميركيون الاصليون حديثي العهد بتلك العادة بل ان الآثار القديمة التي وجدت تدلُّ على انهم كانوا يزاولونها منذ عصور عديدة . ومع ذلك فان نبات التبغ الذي كان هنود اميركة يستعملونهُ إبان دخول خريستوفوروس كولمبوس تلك الديار كان نباتاً بريًّا تنبتهُ الطبيعة في اماكن عدة

(١) وهو موضوع محاضرة القيت في ردهة المجمع العلمي بدمشق وخص المقتطف بنشرها

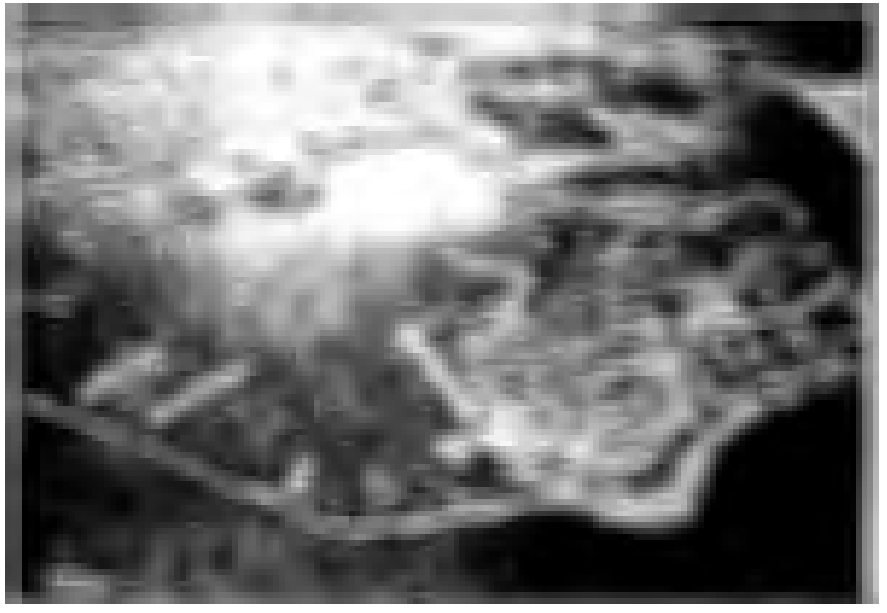

بيريه مرفأ نيس كما يرى من الجو

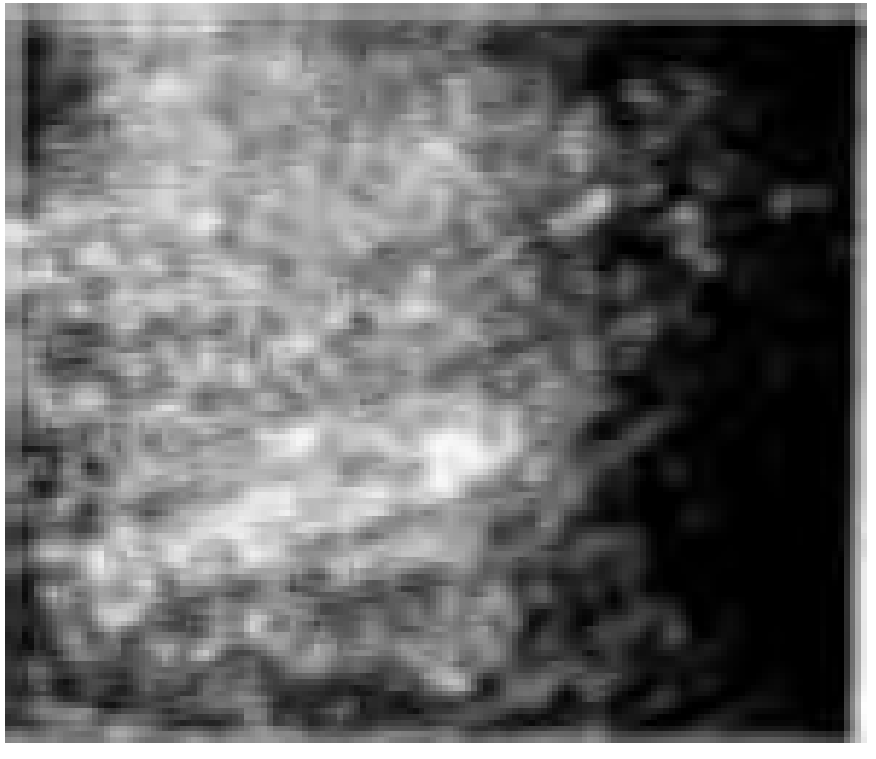

انيا وهياكل الاكروبليس كما ترى من الجو

مقتطف اكتوبر ١٩٢٩

امام الصفحة ٣٠٣

دون ان يكون له حظ من تعهد السكان اياه بعناية من العنايات . وكان الهنود المذكورون يحبونهُ حبًّا جمًّا ويحترمونهُ كل الاحترام ويجعلونهُ مصدراً لكثير من الفضائل ويذهبون الى ان روحاً قدسية تحلُّ بهم اذا ما استنشقوا دخانهُ اللذيذ ولهذا كانوا يحرقونهُ كالبخور في صلاتهم وتعبدهم حتى اذا سكر كهانهم ذلك السكر الخفيف الذي يتولَّد منهُ صحَّ اعتقادهم بأن الروح التي تحمي حماهم وتدرأ عنهم عوادي الايام والليالي قد حلَّت فيهم وآتتهم برحمة من الآلهة . وكانوا يعتقدون ايضاً ان التبغ يشفي كثيراً من العلل وانهُ قتال للاعداء ولذا كانوا يستخرجون منهُ سمًّا يسقون بهِ نصال رماحهم وسهامهم . وكان دخان التبغ ينتشر في جو البيوت كما اجتمع رؤساؤهم لامر هام كالمداولة في صلح او قتال بين القبائل واغرب من هذا انهم كانوا يلفون ورق التبغ لفافات صغيرة يشدونها الى اعناقهم او الى اوساطهم فتكون عوذاً يتقون بها صروف الدهر كالحجب في ايامنا هذه

واختلف الرواة فيمن نقل نبات التبغ وبزوره الى اوربة قبل غيره فقال بعض المؤرخين ان هرمندز الطليطلي [1] هو الذي نقله من المكسيك الى اسبانية في اوائل القرن السادس عشر من الميلاد وقال آخرون ان الفضل في ذلك يرجع الى امير البحار الانكليزي المسمى درايك Drake ومهما يكن فان استعمال التبغ في اوربة ظل مقتصراً على قليل من الناس الى اواسط القرن السادس عشر ولم يعمَّ استعماله الا بعد ذلك التاريخ

ويقص المؤرخون عن نقل هذا النبات الى فرنسا قصة غريبة وهو انهُ كان للملكة كاترينا دومديسي [2] سفير في لشبونة يدعى جنا نيكو [3] ففي يوم من سنة ١٥٦٠ اتاه احد التجار بقليل من بزور التبغ فزرعها في حديقتهِ وصار يعالجها خبيراً . ولما كانوا يعتقدون في تلك الايام ان هذا النبات ينقي الدم ويزيل الصفراء من الدماغ وكانت الملكة المشار اليها مبتلاة مع ابنها بالسوداء والاخلاط النماغية فقد ورد الى خاطر السفير ان يبعث الى ملكته بشيء من مسحوق التبغ لعله يشفيها . فاهتمت الملكة لهذه الهدية وأذاعت امرها على الشعب ففشى استعمال الناطوس في انحاء فرنسة وساد معه الاعتقاد بأنهُ شفاء لجميع العلل وقد كادوا يؤلهونهُ شأن هنود اميركا الاقدمين . ونقل التبغ من فرنسة الى سائر انحاء اوربا والجميع يجلون هذه المنحة الالهية ولكنهم ما عتموا ان ادركوا انهم في خطإ مبين وان التبغ لا يشفي شيئاً من العلل بل يولد كثيراً منها فأخذ بعض ملوك اوربا يضطهدون المدخنين ويُرهبونهم بالغرامات والسجن ويتوعدونهم بالقتل واحتذى البابوات وبطارقة الروم حذوهم وكذا بعض ملوك الشرق كالسلطان مراد الرابع العثماني

(1) Hermandez de Tolède (2) Cathérine de Médicis (3) Jean Nicot

فانهُ اصدر ارادة سنية بأن التبغ مسكر يحرمه الدين ولهذا حق على كل مدخن ان يشرم شفتاه وعلى كل من يستعمل الماطوس ان يجدع انفه واذا لم يرتدع كل منهما فجزاؤه القتل . ويروى ان السلطان محمد الرابع كان يتجسس بنفسه امور المدخنين ويتسقط اخبارهم فاذا عثر على احدهم قلّده في عنقه طوقاً من ورق التبغ وأدخل في انفه (شبقاً) وصلبهُ وهو في هذه الحال . ويظهر ان الشاه عباس في فارس ما كان اقل قسوة من سلاطين آل عثمان . اما في الروسيا فان احد دوقاتها كان يجدع المدخن فاذا لم يرتدع جدع انفه حتى اذا لم يكن هذا العقاب كافياً وأخذ يجدوع الانف وهو يدخن فجزاؤه القتل . ولكن الاضطهاد لم يُجد نفعاً وظلت عادة التدخين تنتشر حتى رأت الحكومات في اواسط القرن السابع عشر وأواخره ان لا قبل لها باستئصال هذه العادة وان أهون الشرين ترك المدخنين وشأنهم على ان تستوفي عن زراعة التبغ وتجارته ضريبة فادحة تكون مورداً مهماً لبيت المال وهكذا احتكرت الحكومات زراعة هذا النبات وتجارته إما مباشرة او بواسطة شركات حصر الدخان

﴿ تحليلهُ وخواصه ﴾ هو من الفصيلة الباذنجانية التي تشتمل على نباتات مهمة كالبادورى (الطاطم) والباذنجان والبطاطس والفليفله وغيرها ومن بعض نباتات هذه الفصيلة تستخرج في الطب سموم قتالة كالستركنين والاتروبين والنيكوتين والتبغ الذي يزرع في الشام لهُ ساق عشبية لزجة منتصبة تبلغ متراً وأوراق بسيطة مستطيلة كاملة وبرة تحت العصب الاوسط وازهار عنقودية مرتكزة على رأس الساق وفروعها . وللزهرة كأس جرسية وتويج قمعي الشكل وردي اللون وبزور التبغ دقاق عظيمة العدد وذكر العالم الباتي « لينيوس » انهُ عدَّ ٤٠٠٠٠ بزرة في ثمرة واحدة

والمادة الاساسية او العنصر الفعال في التبغ هو النيكوتين . وهو يستمدّ لوجود هذه المادة فيهِ لانها هي التي تحدث شبه سكر او تخدير طفيف يسلي المدخن المكدود ويذهب بشيء من قلقهِ . وهي قلويٌّ عضوي زيتي مائع يذوب في الماء لا لون لهُ ذو طعم حريف محرق ورائحة هي رائحة التبغ بنفسها . وهي سم ناقع الاّ انها لا تكون في اوراق التبغ مطلقة بل تكون ممزوجة بحوامض عضوية ولهذا اذا شممنا ورقة تبغ طرية فاننا لا نستروح النيكوتين فيها لكننا اذا يبسنا الاوراق وجعلناها تختمر فادة النيكوتين تنفصل عن الحوامض المذكورة فتطلع رائحتها وهي رائحة التبغ الخاصة . وكلما طال زمن تبييس الاوراق واختمارها نقص مقدار النيكوتين فيها وعدا التبغ خفيفاً . ويختلف مقدار النيكوتين في الاوراق اليابسة من ١٫٥٠ الى ٧ في المائة من وزنها وقلما يزيد على ٢ في المائة في التبغ الذي تدخنهُ

﴿ مضاره ومنافعه ﴾ : للتبغ اعداء واصدقاء فاعداؤه يزعمون انهُ يسبب أدواء شتى

اما اصدقاؤه فيرون ان فوائده تفوق مضاره ولذا لا يجوز منع استعماله . ومن اقوال بعض الاطباء اعداء التبغ أن استعماله عاطوساً يؤدي الى فقد حاسة الشم . وفقد هذه الحاسة يفسد هيئة الوجه فيصبح عبوساً مكمداً . ثم ان الذي يفرط في استعمال العاطوس يضطر الى استنشاق الهواء من فمه فتتباعد شفتاه وينتفخ فكاه وتتدلى ذقنهُ حتى يصير منظره شبيهاً بمنظر رجل مسكين او احمق . اما صوتهُ فانهُ يختنق ويبح ويسد انفهُ فيكون له في الليل شخير مزعج . وربما حصلت قروح في انفهِ فيصير تنفسهُ كريهاً كنفس اشد الناس بخراً فيتحاشاه جلساؤه وتسوء حاله في عزلة عن الخلق . ويمتد الضرر الى العين فتحمر ويلتهب غشاؤها الداخلي فتسيل الدموع على الخد كما يسيل مخاط اسود من الانف يوسخ الالبسة

والافراط بالتدخين لا يقل ضرراً برأي هؤلاء الاطباء عن الافراط باستعمال العاطوس فهو يهيج غشاء الفم واللثة ويضر بالاسنان ويفسد رائحة الفم ويسيء الهضم ويقلل شهوة الطعام ويصيب الطحال ويهيج الحنجرة ويولد في الرئة امراضاً شتى وفي القلب خفقاناً وفي الكلى البومياً وسكراً وهو ايضاً يضعف الذاكرة والذكاء وقوة العمل كما يزيد الجنون تدريجيًّا . وللتدخين في نظرهم ضرر اعظم من كل ما ذكر وهو انهُ يفسد الاخلاق . ذلك ان مدمني التدخين تضطرب اعصابهم ويذوي شبابهم ويسوء خلقهم فينقلب الحب في نفوسهم بغضاً والرأفة حقداً والخير شرًّا واضاف تولستوي الحكيم الروسي الشهير على ذلك ان المدخنين لا يلجئون الى التدخين الاَّ بقصد الابتعاد عن ضمائرهم وتخفيف وطئة تبكيتها عند ما يقدمون على اعمال سيئة او شريرة وضرب على ذلك امثالاً في شخصهِ فقال انهُ عند ما كان يشعر بحاجة ماسة الى العمل ويرى ان العمل متعب كانت تثور في نفسهِ معركة بين واجب انكدح وبين حب الراحة والدعة حتى اذا اخذ سيكارة واشعلها رجحت لديهِ كفة البطالة . واذا تشاجر مع احد رفاقهِ فاغلظ له الكلام وهو عالم بانهُ لا يستحق ذلك فالسيكارة كانت السلاح الذي تحمله يتمادى في ايذاء صديقهِ عن غير رغبة منهُ

وعند ما كان يقامر ويسحر فالسيكارة كان يداوي نفسهُ اي يجعلها اقوى على احتمال الخسارة واشجع في المخاطرة على المبالغ الكبيرة . وكلما كان يخطيء او يأتي امراً إدًّا دون ان يود الاعتراف بخطئهِ فالسيكارة كانت خير سلوان لهُ على التمادي في غيّهِ والاصرار على انكار خطر ما اقترفهُ واسناد العمل الى آخرين . وهكذا يضرب تولستوي امثالاً كثيرة على اضرار التدخين لكنهُ لا يذكر بعد ان ابطل هذه العادة هل اصبح اقل كسلاً في عمله واوسع صدراً مع رفاقهِ وهل زال تعلقهُ بالمقامرة وصار اقل ايذاء واكثر صدقاً ؟ هذا ما يشك فيهِ . والحقيقة ان اعداء التبغ جدُّ مبالغين في اقوالهم لان كثيراً من الاضرار التي

ذكرتها لم يقم عليها دليل حسي . ويجب ان نفرق بين الاعتدال في التدخين والافراط فيه . فالاول لا يرى جمهرة الاطباء فيه بأساً يذكر اما الثاني فيرون فيه بعض اضرار ثابتة كسوء الهضم والتهاب في الصدر وضعف الذاكرة والبصر واضطراب النبض . فالتبغ اذن ليس ذلك السم القتال الذي يجب اجتنابهُ دائماً بل ربما تساوت حسناتهُ وسيئاتهُ اذا دخن باعتدال وهذه الحسنات هي كونهُ يسلي المرء عن هموم الحياة ومصائبها بالسكر الخفيف الذي يحدثهُ ويخفف سئامة العطالة في العاطلين ويزيد حب الخير ويزيل شيئاً من وطئة الحياة عن عاتق الذين انهكتهم الاعمال . ولكم كان سلوى الشيخ الهرم الذي لا يزال عالقاً بالحياة وبشرى المريض اذ يرى في لذة دخانهِ عودة الصحة اليهِ . وهو يشحذ الذهن ويسهل الاعمال العقلية ولذا ترى معظم الكتاب العلماء يدخنون حتى ان بعضهم كان يفرط في استعماله . فمن المشهورين الذين كانوا يدخنون باكون وكانت ونيوتن وملتون وموسه وبيرون وغوتيه وكثيرون غيرهم . اما فيكتور هوغو وكوته واسكندر دوماس فما كانوا يدخنون . وكان تولستوي يدخن في شبابهِ ثم ترك التبغ وصار عدوًّا لهُ . ولقد اجمع معظم اطباء الانسان على ان دخان التبغ يفيد اسنان المدخنين لانهُ يقتل بعض جراثيم تعيش في افواههم . وهم لا يبتلون بسوس الاضراس الا بعد غيرهم وذكر بعض الاطباء ان القليل منهُ يزيد الشهوة الى الطعام كما يمكن بعض ما يصيب جهاز الهضم من التهيج

ومما لا مرية فيهِ ان ترك التدخين بتاتاً هو انفع الحالات لاسيما اذا كان المدخن ضعيف الارادة لا يكتفي بتدخين عدد معتدل من السيكارات في اليوم . لكنهُ اذا كان لابدَّ للانسان من شيء يخدر بهِ اعصابهُ فالتبغ اقل الاشياء المخدرة ضرراً فشتان بينهُ وبين المشروبات الكحولية المختلفة — الحشيش والافيون والمورفين والكوكائين واضرابها من السموم القتالة . ومن القواعد الصحية التي يجب اتباعها اجتناب التدخين على الريق او في غرفة مغلقة ابوابها ونوافذها لاسيما عند ما يكون عدد المدخنين فيها كبيراً . ويجب اجتناب بلع الدخان فلا يبلغ الرئة ولا يتجاوز الحنجرة . ويفيد استعمال « فم السيكارة » واجودها اطولها لانها تحمل مقداراً من النيكوتين اكبر . وعلى الذين يدخنون السيكارة ان يرموا بها قبل ان يبلغ الاحتراق منتهاها لان النيكوتين يجتمع رويداً رويداً في عقبها اثناء تدخينها فيكون الدخان هنالك اغنى بتلك المادة منهُ في رأسها ويختلف عدد السيكارات التي يجوز تدخينها في اليوم باختلاف امزجة المدخنين ويرى كثير من الاطباء ان ١٢—١٥ سيكارة هي منتهى حد الاعتدال في الاحوال العادية . ومهما يكن فان على الاولاد والشبان والنساء ان يجتنبوا التبغ وكذا المبتلون بامراض في عيونهم او افواههم أو حناجرهم (لها بقية)

الشارقاري

مقتطف أكتوبر ١٩٢٩
إمام الصفحة ٣٠٩